الفلسفة البنائية

وموقعها من المنهج العلمي

بقلم لوسيان سيف
ترجمة أحمد القصير

شهدت السنوات القليلة الماضية في فرنسا اهتماما متزايدا بالاعمال والمجادلات النظرية حول الفلسفة البنائية المعاصرة وصل ذروته فيما بين ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧ ، وان كانت دراسات ليفي ـ شتـــــراوس الانثروبولوجية والتصورات اللغوية المرتبطة بها ، ونظريات ج. لاكان المحلل النفساني ، ونظريات فوكوه المؤرخ للعلوم الانسانية ، وأعمـال باحثين آخرين يتردد بينهم اسم التوسير الفيلسوف الشيوعي ، قـد نشرت خلال الستينات على نطاق واسع ونالت اهتماما بالغا ومناقشة جـادة .

وليس الاهتمام الشديد بمدرسة فلسفية واحدة بالامر غيـــر المألوف في تاريخ فرنسا الحديث : فقد كانت الموضة هي البرجسونية فيما بين ١٩٠٠ ـ ١٩٢٢ ، والشعبية الهائلة لوجودية سارتر فيما بين ١٩٤٥ ـ ١٩٦٠ ، غير انه حتى الدراسة السريعة سوف تكشف ان البنائية ، بالمقارنة مع هذه المدارس الفلسفية ، لها سمات معينـة جديدة تعبر عن تغيرات عميقة في حياة البلاد الايديولوجية .

ولا تهتم البنائية بان تعلن « فلسفة جديدة » قدر اهتمامهـــا ان تظهر عجز المفهومات الفلسفية القائمة وذلك في ضوء المعرفـــة المتجمعة عن طريق علوم الانسان . ولا تعتمد البنائية على « فيلسوف عظيم » واحد ، أي « قدرة واحدة تسيطر على عقول الناس » ، وانما تعتمد على حشد من المفكرين يبشرون بافكار جديدة . ولا يمكـــن ان نتناول البنائية على انها مدرسة فلسفية واحدة متسقة . ذلك انها تنتحل اكثر الاشكال تباينا ، بعضها يدرس موضوعات مجتزئة ، والآخر يتناول موضوعات تصل الى حد التناقض . كما ان موقفها مـــن الماركسية غير متسق : تعتبر ان الماركسية شديدة الصلة بها ، او على الاقل سلف لها ، ومن ناحية اخرى ترفضها باعتبارها « فرعا ميتا » في شجرة أنساب البنائية .

وفي النهاية، فان البنائية لم تتمتع الا برواج قصير الامد : بدأ بمناقشة ليفي ـ شتراوس الحادة ضد سارتر في كتابه « الفكـــر الهمجي » (١٩٦٢) ، وبلغ ذروته عام ١٩٦٦ بكتاب فوكوه « الكلمات والاشياء » وكتاب لاكان « كتابات » ، (اما اعمال التوسير وزملائـه حول « ماركس » و « رأس المال » فقد ظهرت في نهاية عام ١٩٦٥) ، وكان ذلك قد حدث لمجرد ان تكتسحه احداث مايو ـ يونيو ١٩٦٨ .

ومن البديهي ان نسأل عن سبب احتلال البنائية مكان الصدارة بمثل هذه السرعة في منتصف الستينات ، خاصة انه عندمـا بدأت أفكارها تجتذب اهتمام الدوائر العلمية فان احدا لم يتوقع، فيما يبدو، ان هذه الافكار تستطيع ان تحدث ما يقال أنه « ثورة » في المعرفة . والواقع ، ان الابحاث الرئيسية التي تعتبر اساس البنائية المعاصرة انما ترجع الى الثلاثينات ، بل ويرجع معظمها الى مـا قبـل الحرب العالمية الاولى . ففي مجال اللغويات يمكن الاشارة الى اعمال سوسير، وفيما بعد الى اعمال تروبنسكوف وجاكوبسون واعمال حلقة بـراغ ، وفي مجال علم النفس الى اعمال منظري (الجشتطالت) التي ساهمت الى حد كبير ، في فترة ما بين الحربين ، في ظهور آراء البنائيين ، كما يمكن الاشارة ايضا ، من وجهة معينة ، الى اعمال فرويد ، وفي الميدان الفلسفي يمكن الاشارة الى هوسرل واعمال باشلارد اللاحقـة حول القضايا الفلسفية للعلم .

كل هذا يجعل من الضروري تماما ان يحلّل الماركسيون اسبـاب انتشار البنائية ، خاصة انه في السنوات القليلة الماضية ، وبعـد هدوء وجيز الامد ، كانت ثمة دلائل عديدة على عودة انبعاث افكـار البنائية في اشكال جديدة ، ويرتبط هذا ، الى حد ما ، بنشـــأة فروع جديدة للمعرفة .

تحولات في الايديولوجيـــة :

لماذا جاء انبعاث البنائية في منتصف الستينات على وجـــه التحديد ؟ اننا نعتقد ان احد الاسباب الاساسية ، ان لم يكن السبب الرئيسي ، انه حتى عام ١٩٦٠ احتلت مكان الصدارة في الحيـاة الايدلوجية انساق فلسفية تقليدية تفسر العالم بطريقة تأمليـــة . فقد سادت الفلسفة الجامعية الروحية والديكارتية ، بما يتسمان مـن ولع بالذاتية ، باعتبارها شكلا مجردا للوعي البرجوازي ، ما يزيـد عن مائة وخمسين عاما . ولا يرجع ذلك الى صلاحيتهما العلمية ، وانما

---

(١) تمت ترجمة هذه الدراسة نقلا عن النص الانجليزي المنشور بالعدد رقم ٦ (يونيو) عام ١٩٧١ من مجلة :
Peace, Freed omand Locialism
. كما نشر النص الاصلي باللغة بالفرنسية في العـــدد رقم ٧ (يوليو) ١٩٧١ بمجلة :
La nouveelle Revue imternationale
وينبغي التنويه بان الدراسة قد نشرت بالمجلتين تحت عنوان : Structuralism فحسب، ولكن بعد ان قمت بترجمتها الى العربية حاولت ان اضعها تحت عنوان مستمد من مضمون الدراسة، فربما كان نشرها لقراء العربية تحت عنوانها الاصلي ، اي « البنائية » فقط غير كاف للتعبير عن مضمون محتوى الدراسة ، خاصـــة ان البنائية لم ينشر عنها شيء يذكر باللغة العربية . ـ المترجم

يعود الى اللغو العلمي الذي غلفهما بقضايا موضوعية وقدمهما الى القارىء في شكل اكثر او اقل عقلانية . وقد استطاعت الفلسفة الذاتية بذلك ان تبقي كثيرا من المثقفين ، ولفترة طويلة ، في جهل بانجازات العلوم المختلفة والتي كانت كثيرا ما تقف على ارض غير راسخة . ان برجسون ، على سبيل المثال ، فرض أفكاره ذات الصبغة الذاتية على النفس الفسيولوجي والبيولوجيا ليجعلهما يخدمان الروحية التطورية . كما ان سارتر يفعل نفس الشيء ، وان كا نذلك يحدث بالطبع في ظروف مغايرة . فهو يستخدم المعلومات الخاصة بالمدرسة السلوكية في علم النفس (كتاب : موجز لنظرية ظواهريات العواطف) أو الخاصة بالتحليل النفسي (كتاب : بودليو) أو حتى الخاصة بالمادية التاريخية (كتاب : نقد العقل الجدلي) ، وبعد ان يفرغها من مضمونها يقدمها على انها مظاهر « الاختيار الحر للفرد » ، والذي يعتبره العامل الاساسي . وان كانت ثمة اختلافات وتناقضات معينة بين هذه الاتجاهات الفلسفية الذاتية ، الا انها قد تعهدت هي واتجاهات أخرى مشابهة بنفس الوظيفة المحددة للايديولوجية البرجوازية ، نعني بذلك ، ان تؤخر ، ولاطول فترة ممكنة ، الثورة الكوبرنيكية الاخيرة ، اي تلك الثورة التي لا مفر من ان تنذر بنهاية كل الفلسفة المثالية .

انه لامر طبيعي ان تسود افكار البنائية في المجال الايديولوجي في وقت لم تعد فيه الفلسفة الذاتية ، التي هي بمثابة البحث الاخير لفلسفة الماضي المثالية العظيمة قادرة ، ولاول مرة منذ بزوغ الفلسفة البرجوازية ، على ان تحافظ على مكانتها . وهذا يؤكد بشكل حاسم رأي انجلز بان انهيار كل الانساق الفلسفية التأملية امر لا مفر منه ـ وليس من قبيل المصادفة ان افكار ليفي ـ شتراوس بدأت تجذب الانتباه بمجرد ان فشل سارتر في محاولته اليائسة ـ في كتاب « نقد العقل الجدلي » ـ لانقاذ المعقولة المثالية الذاتية الخاصة بأولوية الوعي الفردي . وقد فشل سارتر رغم قبوله ـ اظهارا للموضوعية ـ المادية التاريخية (ومنذ ذلك الحين سعى سارتر الى ان يستر فشله النظري بأن ينحاز الى جماعات يسارية برجوازية صغيرة غير مرتبطة بأحزاب) . وفي الفصل الختامي من كتاب « الفكر الهمجي » جاء « الناقوس الثالث » لاعلان انبعاث البنائية متمثلا في رفض ليفي ـ شتراوس ، باسم علوم الانساق ، للايديولوجية الذاتية ، خاصة شكلها الاخير المعروف ، أي وجودية سارتر .

لقد حدث هذا حينما اخذت نتائج السيطرة الاحتكارية المباشرة لجهاز الدولة تتزايد بوضوح في كل مجالات الحياة الاجتماعية . فقد أدى نمو رأسمالية الدولة الاحتكارية الى انهيار سريع للمراتب الوسطى التقليدية والمجموعات البرجوازية القديمة ومؤسساتها السياسية وايديولوجيتها « الكلاسيكية » التي ظلت تمثلها في فرنسا الفلسفة الاجتماعية ، بالدرجة الاولى ، لفترة طويلة . كما اخذت تتزايد في الوضوح الطبيعية الطوباوية « للطريق الثالث » ـ منتصف الطريق بين الاحتكارات والطبقة العاملة ـ في حل « قضايا فرنسا » . فان افلاس الفلسفة التأملية بشكل عام ونموذج فلسفة « الطريق الثالث » المتمثل في وجودية سارتر بوجه خاص قد اصبح يتزايد في الوضوح . وهذا يفسر ايضا الاهتمام المتزايد الملحوظ بالماركسية، والتي ساهم انتشارها في توفير الظروف الفكرية الملائمة لمعارك مايو ـ يونيو ١٩٦٨ الطبقية الكبيرة .

ان البنائيين قد استهدفوا ان يعرضوا افكارهم على انها عناصر فلسفة جديدة تمت صياغتها كبديل للوجودية والفلسفات الذاتية الاخرى . وذلك هو محور كل مؤلفاتهم الشهيرة وان كان معظمها معاديا للفلسفة في اتجاهه الاساسي . كما ساعد البنائية ايضا مطالبتها تعميم نتائج البحث في مختلف المجالات العلمية خاصة في مجال الاثنولوجيا، واللغويات ، وعلم النفس ، وفي البداية تم النظر الى البنائية كحركة متحدة الاتجاه مع الماركسية . وهذا ما تشير اليه ، فيما يبدو ، اعمال التوسير . والواقع ان اعلان نهاية الفلسفة ، باسم علوم الانساق ـ الفلسفة التي يقصد بها الانساق المثالية القديمة ـ والنقد الجذري للايديولوجية الذاتية الاتجاه في مجموعها ، استنادا الى تحليل الظروف الموضوعية لكل « حقيقه انسانية » كان دائما وفي جوهر الامر مبادىء ماركسية (لم يستطع المراجعون وحدهم ، مثل جارودي ، ان يستوعبوها) .

هكذا وفي منتصف الستينات بدأ عديد من المثقفين يعتبرون ان البنائية شكل خاص جديد من ماركسيه اصيلة تلقي التأييد في ظل التوجيه المهيب لاساتذة الجامعة البارزين والمحاضرين بها . وفي هذا المناخ الفكري الخاص اقتنع عديد من المثقفين التقدميين بشيء يتعارض كلية مع الماركسية على انه تطوير جديد لها . والى جانب ذلك ، فان هذا « التطور الجديد » ، أي البنائية ، يعزم ان يصبح الايديولوجية السائدة في الوقت الذي يعلن فيه نهاية كل الايديولوجيات . ونتيجة لدور الاحتكار في بث ونشر الافكار مضت البنائية تنطلق بثبات لتصبح أشهر موضة أيديولوجية عرفتها فرنسا .

هل البنائية منهج ماركسي ؟

أن ليفي شتراوس يصف منهج البنائية كما يلي :

ينبغي على المرء اولا ، أن يجمع الحقائق المدفوعة ويحللها ثم يرتبها في قائمة شاملة ، وثانيا ، أن يعين الروابط المتبادلة بين الحقائق ، ويصنفها في مجموعات ، ويحدد ارتباطاتها الداخلية ، وثالثا ، أن يركب الاجزاء في كيان واحد ، أي يضع العناصر المعنية في نسق واحد ، وبهذا ينتج موضوع للبحث منفرد متكامل (انظر : ليفي ـ شتراوس ، طوطمية العصر الراهن ، باريس ١٩٦٥ صفحة ١٨ ـ ٢٣) .

ذلك هو المحور الاساسي للمنهج الذي اطلق اسمه على الفلسفة في مجموعها : البنية كنظام تحكمه قوانين عامة .

ان مفهوم البنية يشير ، في اوسع معانيه ، الى نظام من علاقات داخلية ثابتة يحدد السمات الجوهرية لاي كيان ، ويتشكل منه كل متكامل لا يمكن اختزاله الى مجرد حاصل مجموع عناصره .

وبكلمات أخرى ، يشير الى نظام يحكم هذه العناصر فيما يتعلق بكيفية وجودها وايضا قوانين تطورها . وهذا المفهوم عن البنية ليس جديدا بالنسبة للماركسية . وفي واقع الامر ، ان الاختلاف الجذري بين البنائية والماركسية لا يعلن عن نفسه عند هذا المستوى الاولي ، اي في مفهوم البنية. بل على العكس ، فان مدارس فكرية معاصرة قد استعارت هذا المفهوم من الهيجلية بل ومن الجدل الماركسي . ومن الاوفق تماما ان نقول ان مفهوم البنية استخدمه لاول مرة مؤسسو المنهج الجدلي في منتصف القرن التاسع عشر ارتباطا بذلك النسق الخاص بالوجودالانساني ، أي المجتمع ، وليس ارتباطا باللغة او منطقة اللاوعي او نسق القرابة مثلما حدث ، لاول مرة ، عند نهاية القرن .

ومنذ زمن يعود الى عام ١٨٥٩ كتب ماركس في مقدمة « نقد الاقتصاد السياسي » قائلا :

« يدخل الناس خلال قيامهم بعملية الانتاج الاجتماعي في علاقات محددة لا يمكن الاستغناء عنها ومستقلة عن ارادتهم . وعلاقات الانتاج هذه تتطابق مع المرحلة المحددة لتطور قواهم الانتاجية المادية . ويشكل المجموع الكلي لعلاقات الانتاج هذه البنية الاقتصادية للمجتمع وهي الاساس الحقيقي الذي تقوم عليه البنية الفوقية القانونية والسياسية التي تتطابق معها اشكال محددة من الوعي الاجتماعي » .

وفي المخطوطات الاقتصادية لاعوام ١٨٥٧ ـ ١٨٥٩ « وسع ماركس من مفهوم المجتمع باعتباره وحدة عضوية » قائلا :

« ان كل علاقة اقتصادية في أي نظام برجوازي تماما تعني ضمنا وجود علاقة أخرى ، علاقة برجوازية اقتصادية الشكل ، فكل علاقة

ـ التتمة على الصفحة ٧٣ ـ

الفلسفة البنائية

تابع المنشور على الصفحة ـ ١٣

مشروطة باخرى مثلما هو الحال في كل نسق عضوي . ان مثل هذا النسق العضوي ، باعتباره كيانا متكاملا ، يمتلك ضروراته الخاصة به كما ان تطوره في اتجاه الوحدة المتكاملة يكمن في اخضاعه كل عناصر المجتمع او في خلق ما يفتقر اليه من اعضاء . هكذا ، ففي مجرى التطور التاريخي ينصهر النسق في كلية واحدة » .

ان هذا ولا شك اكثر التعريفات شمولا لمفهوم البنية ، ولا تكاد البنائية المعاصرة تضيف أي شيء جوهري اكثر من محاولات الصياغة الرياضية لهذا المفهوم .

أليس ثمة احتمال ان التباين بين البنائية الماركسية يبدأ عند تعريف قواعد تطبيق مفهوم البنية ؟ ان البنائية تعطي الاسبقية المنهجية للمعالجة الآنية Synchronic ثم تأتي بعدها المعالجة « عبر الزمنية » Diachronic وكما سوف نرى ، فان الفهم الصائب لهذا المبدأ يبين عتم وجود اختلاف جوهري بين الماركسية حول هذه القضية . فما الذي يشير اليه حقا ، هذا المبدأ في اكثر معانيه تحديدا ؟ ان التطبيق الصائب وحده لمبادىء البحث المنهجية يستلزم ان نفرق بشكل واضح بين دراسة بنية معينة من زاوية حالتها وادائها الوظيفي في وقت معين ، اي « المعالجة الآنية » وبين دراسة طريقة تغير هذه البنية عبر الزمن ، أي المعالجة « عبر الزمنية » .وبكلمات أخرى ، لا ينبغي ان نخلط بين الحالة التي عليها البنية وبين عملية تغير مظهرها . يضاف الى ذلك ، انه اذا كان التاريخ هو ، حقا ، تاريخا لابنية وليس تاريخا لعناصر متفرقة ، فانه ينبغي على المرء ، وفقا لهذا المبدأ ، ان يعرف اولا الحالة التي عليها هذه الابنية ليصبح قادرا بعد ذلك على ان يكتشف تاريخها . ان هذا التفسير يبين ان مبدأ البنائية الاساسي لا يتناقض مع التفكير الماركسي ، بل ويمكننا ان نشير ثانية الى ماركس الذي طبق منهجا مماثلا في تحليل الظواهر الاقتصادية للرأسمالية .

لقد كان هدف ماركس ان يبين حتمية ان ينهض ، وبطريقة ثورية مجتمع اكثر تطورا ذو نمط اشتراكي بدلا من المجتمع الرأسمالي ولم يستدل ماركس على ضرورة ذلك التغير بمذاهب تجريدية عن التطور، وانما عن طريق تحليل عميق لكل من الابنية الداخلية للاقتصاد الراسمالي والاداء الوظيفي المستقر ظاهريا لهذا الاقتصاد . وهكذا ، انطلق ماركس من الابنية الى التاريخ .

وحينما تحدث ماركس عن منهجه في تحليل المراتب الاقتصادية كان يؤكد :

« سوف يكون من المستحيل والخطأ ان نتناول المراتب الاقتصادية بنفس النظام الذي لعبت به دورا حاسما في التاريخ . بل على العكس من ذلك ، فان النظام تحدده العلاقة القائمة في أي مجتمع برجوازي معاصر . كما ان هذا النظام ، يتناقض بكل معنى الكلمة ، مع ذلك الذي يبدو انه الترتيب الطبيعي او انه متطابق مع سياق التطور التاريخي .ان الامر لا يتعلق بالاوضاع التي شغلتها العلاقات الاقتصادية تاريخيا في مختلف التكوينات الاجتماعية المتعاقبة ، وليس هو ايضا مشكلة تتابعها في الفكرة (برودون) التي تحرف مفهوم العملية التاريخية . وانما تتمثل المشكلة في تدرج هذه المراتب داخل المجتمع البرجوازي الحديث .

ولا شك ، ان هدف الاقتصاديات هو ان تكشف عن قوانين تطور التكوينات الاجتماعية ـ الاقتصادية ، غير انه لا يمكن انجاز ذلك الا بعد تبين العلاقة الداخلية بين الاوجه المختلفة للكيان موضع البحث . هكذا فحسب يمكن اظهار الحركة الحقيقية بشكل صائب . ووفقا لهذه الخطة تم بالفعل تصور كتاب « رأس المال » . فالجزء الاول يحلل الظواهر التي تشكل عملية الانتاج الرأسمالي ، والجزء الثاني تم تخصيصه لعملية التوزيع التي تكمل عملية الانتاج ، وفي الجزء الثالث اصبح ممكنا « وصف الاشكال العينية التي نشأت عن حركة رأس المال في مجموعها » ، (كارل ماركس ، رأس المال ـ موسكو ١٩٦٢ الجزء الثالث صفحة ٢٥) .

ولو ان كتاب « راس المال » قد تم استكماله لكان قد انتهى ، حسبما اشار ماركس في مناسبات عديدة ، بتحليل للصراع الطبقي ، أي تحليل الحركة الاجتماعية التي تزيل التناقضات الكامنة في اسلوب الانتاج الرأسمالي . وبكلمات أخرى ، لقد تدرج بحث ماركس من « التشريح الدقيق » للاشكال الاقتصادية الاولية الى المعالجة « عبر ـ الزمنية » فالى العملية التاريخية في مجموعها .

يتضح من هذا انه قبل ان يستخدم منهج البنائية في مجال اللغويات ، والانثولوجيا ، وعلم النفس ، بامد طويل كانت قيمته العملية قد تم اظهارها في تحليل ماركس لظواهر المجتمع البرجوازي الاقتصادية .

الاختلاف الجوهري مع الماركسية :

ان كل ما تقدم يمكن ان يخلق انطباعات بانه ليس ثمة خلاف جوهري بين المنهج البنائي الجدلي . ويوحي بهذا ايضا قول ليفي ـ شتراوس انه قد استعار مفهومه الاساسي عن البنية من « ماركس وانجلز واخرين « ، بل ويستطرد قائلا :

« انني أريد ان أعيد توحيد كل انجازات الانثولوجيا خلال الخمسين عاما الماضية في الاتجاه الماركسي » (الانتروبولوجيا البنائية، باريس ١٩٥٨ صفحة ٣٦٤) .

وفي كتابه « المدارات الحزينة » ، نجد بين ملاحظاته عن سيرته الذاتية العبارات البالغة الدلالة الآتية :

« لقد هزني ماركس . فمن خلال عقله الجبار اطلعت على الاتجاه الفلسفي منتقلا من كانت الى هيجل : ان عالما باسره قد فتح امامي. ومنذ ذلك الحين لم يفارقني هذا الاحساس ، ونادرا ما احاول معالجة اي قضية من قضايا علم الاجتماع او الاثنولوجيا دون ان أنعش افكاري أولا بقراءة بضع صفحات من كتاب « الثامن عشر من برومير ، لويس بونابرت» ، او كتاب « نقد الاقتصاد السياسي » .

(المدارات الحزينة ، باريس ، صفحة ٤٤) .

اننا امام وضع قد يصعب ان نفهمه : لماذا اذن لا يعتبر البنائيون انفسهم ماركسيين ؟ ولماذا يصرون على تسمية المنهج الذي يزعمون انهم استعاروه من ماركس المنهج البنائي وليس الجدلي ؟ ان هذا السؤال يذكرنا بآخر ، ففي الايام التي اعلن فيها سارتر اتفاقه الكامل مع الفلسفة الماركسية ، طرح سؤاله عن سبب التزامه بالوجودية . وحسبما هو واضح من تطور سارتر النظري والسياسي فان الاجابة هي : لا يمكن للمرء ان يبشر بالوجودية دون ان يرفض في نفس الوقت الجوهر الحقيقي للماركسية ، والبنائية ينطبق عليها نفس الامر رغم كل اختلافاتها عن الوجودية ، فان رفضها ان تكون متطابقة مع المادية الجدلية ليس مجرد قضية اصطلاحات او التمسك بمكانة نظرية ، وانما هو تعبير عن اختلاف جوهري مع الماركسية ، وهذا ما يتضح في القضايا الاساسية التالية :

(١) ان منهج البحث عند البنائيين لا يؤكد اسبقية المعالجة « الآنية » على المعالجة « عبر ـ الزمنية » في بساطة وحسب ، وانما يفصل بين الجوهر الحقيقي لهذين المدخلين الى درجة تعوق وحدتهما الداخلية تماما . ولا تمضي البنائية بالطبع ، الى حد ان تستعرض

الموضوعات بشكل استاتيكي بحت او الى حد ان ترفض المعالجة « عبر الزمنية ـ . غير ان ما يسمى « النظرية البنائية حول المعالجة عبر الزمنية » انما ترفض في واقع الامر الحلول الملائمة للقضايا التاريخية .

فبينما توافق البنائية على ان الابنية تتطور عبر الزمن نجدها لا تعالج ذلك باعتبارها عملية تاريخية مسقطة في المستقبل ، وانما على العكس من ذلك ، تتناوله على انه حركة نحو الاكتمال ومن ثم نحو الخمود . وعلى هذا النحو يكتب أ . ج جريماس ، عالم اللغويات ، قائلا :

« ان التاريخ ليس نقطة انطلاق مثلما يقال دائما ، وانما على العكس ، هو اكتمال ، انه « اشبه ما يكون بالفرملة وليس المحرك » . ومن ثم يرى « أن ثمة قسطا كبيرا من الحقيقة في القول الشعبي المأثور : مهما يتغير يظل كما هو نفس الشيء » .
(الازمنة الحديثة ، نوفمبر ١٩٦٦ صفحة ٨٢٣) .

ان هذا القول يتجاهل ما هو جوهري : التاريخ كعملية تطور مستمر وغير محدود للمجتمع الانساني ، أي التاريخ مثلما هو حقا . وأينما سلمت البنائية بالتغيرات في الابنية نجدها تعتبر ان التغيرات مجرد « انفجار في البنية » ناتج عن تصادمها مع الظروف الخارجية. وهذا يعني انكار القوانين الداخلية للتطور التاريخي . هكذا ، يترك التاريخ طلقا ، أي ينظر اليه وكانه مجرد تتابع تصادفي لحقب وفترات غير مترابطة . وفي « الكلمات والاشياء » نجد م . فوكوه يعتبر ان الحقب في تطور المعرفة اقرب ان تكون منظارا نرى من خلاله التغير من ان تكون عملية مستمرة من التطور التقدمي للمعرفة . وعلى عكس الفهم الجدلي للتاريخ والابنية في وحدتها العميقة فتؤكد البنائية ـ التي تنكر هذه الوحدة ـ الثبات النسبي للابنية . وهذا يضعها في حلقة مفرغة ، بمعنى انها تتارجح بين الابنية بدون تاريخ حقيقي وبين التاريخ بدون ابنية حقيقية .

(٢) ان الماركسية تقدم فهما منطقيا عميقا لوحدة الابنية والتاريخ، وتكشف عن القوة المحركة لكل العمليات ، أي ، التناقض الجدلي . فمن زاوية وحدة الاضداد يتضمن هذا الفهم كلا من الثبات النسبي للابنية والقانون الذي يحكم تتابع مراحل التطور التاريخي . غير ان التناقض الجدلي يعني ، في نفس الوقت ، صراع الاضداد ، ومن هنا يكشف عن الدينامية الداخلية للبنية والتغيرات الكيفية التي تحدد تاريخها الواقعي .

ان التناقض الجدلي غريب على البنائية . وتلك سمة رئيسية تميز منهجها. فهي تقر فقط بالتتام المتجاور المشترك للحقائق والظواهر والابنية، أي الشكل الخارجي او الصورة الشاحبة للتناقض الجدلي. ان البنائية تهتم ، كقاعدة عامة ، بالتتام المتجاور لعناصر اي نسق او اخر مثل نسق القرابة او نسق التصورات . وتلك ليست خاصية التناقضات الجدلية ، ذلك ان الاداء الوظيفي لعناصر اي نسق يرتبط بميكانزم الظاهرة اكثر من ارتباطه بالديالكتيك .

ان الهدف الاساسي لاي تحليل علمي هو ان يبين ان الثبات الظاهري لهذه الميكانزمات يحجب العمليات المتناقضة التي تنشأ عنها الميكانزمات ذاتها والتي تحولها في مجرى التطور الاساسي الى ميكانزمات جديدة . والماركسية لا ترفض تحليل الميكانزمات العينية للتطور الاجتماعي ، ودليل ذلك تحليل ماركس ، في كتاب راس المال لتحول ميكانزم الدورة على شكل : سلعة ـ نقود ـ سلعة ، أي القاعدة الخاصة بالسلعة البسيطة الى القاعدة العامة لرأس المال ، أي الى الدورة في شكل : نقود ـ سلعة ـ نقود . وان فهم تناقضاتها يساعدنا على فهم ميكانزم عملية خلق فائض القيمة وعملية الصراع الطبقي .

ان منهج ماركس لا يتجاهل ميكانزم الظواهر ، وانما يركز على كشف جدلية العمليات التي وراء ثباتها النسبي . ولقد كان ذلك هو المنهج الجدلي العلمي الذي مكن ماركس من ان يثبت ان :

« المجتمع الراهن ليس بلورة صلبة وانما نظام قابل للتغير بل ودائم التغير » . (راس المال ، المجلد ١ صفحة ١٠) .

وفي هذا الصدد ينبغي ان نعتبر المنهج البنائي معاديا للجدل .

(٣) لماذا لا ترى البنائية التناقضات الجدلية ، أي حلقة الوصل بين التاريخ والبنية ؟ والاجابة هي ان البنائية تنكر الجوهر الاساسي للتطور الاجتماعي ، أي جدلية جوهر المجتمع الانساني ، ونعني بذلك، جدلية الانتاج الاجتماعي للقيم المادية . وهذا هو بيت القصيد : ان جدل ماركس العلمي لا ينفصل عن ماديته ، ذلك ان جدلية كل أوجه الوجود الاجتماعي والوعي الانساني متاصلة في النشاط المادي ، ومن ثم فان الميزات الجزئية للبنائية لا يمكن ان تكون ذات فعالية جادة مهما بلغت قيمتها طالما انها تنكر الاساس الذي يعين كل الظواهر الاجتماعية .

وليس ثمة صلاحية ايضا في زعم البنائية انها منهج شامل لمعرفة كل الظواهر والعمليات . فان نقطة انطلاقها هي ان اللغةوالابنية اللغوية بمثابة مطلقات يفترض انها تحدد كل العوامل الاجتماعية الاخرى . ان ليفي ـ شتراوس مثلا يقول :

« ان اللغة هي اساسا ظاهرة ثقافية (تميز الانسان عن الحيوان» (الانثروبولوجيا البنائية ، صفحة ٣٩٢) .

وهذا يعني ان اللغويات بمثابة النظام الموجه لكل العلوم الانسانية مجتمعة . وتلك هي البديهية الاساسية للبنائية . ويبدو ان البنائيين لا يريدون ان تكون افكارهم متسقة : فبينما يطالبون بتحليل العناصر وروابطها داخل اي نسق ، نجدهم يعزلون عاملا واحدا ، اي عنصرا واحدا ، ثم يعلنون ان له الاهمية الحاسمة .

ان ديكارت استطاع في عصره ان يعتبر ان اللغة بمثابة الشيء الوحيد الذي يميز الانسان عن الحيوان . وفي عصرنا الراهن ثمة برهان علمي على وجود نسق للعوامل السببية تشكل اللغة احد عناصره الى جانب عناصر اخرى مختلفة تتساوى معها في الاهمية ، عناصر اخرى مثل تشكيل الادوات التي تسهم ، في تحليل الاخير ، في نشاة اللغة في ارتباط وثيق بتطور الوعي الانساني .

ان البنائيين انما يخطئون عندما يعتقدون ان اللغويات بمثابة « النظام الموجه » . وقد اوضح ج. مونيه ، عالم اللغويات الماركسي، وبشكل صائب ، ان نقل مناهج ومفاهيم أي علم الى علم اخر نقلا آليا دون بحث متعمق لاختلافاتهما الحقيقية او المضمون النوعي لكل علم ، انما يؤدي الى احلال الاستعارة محل البحث العلمي . بل ويصل البنائيون الى حد الادعاء بان تجمع أي قدر معين من مفهومات ومصطلحات تتعلق بأي مجموعة منعزلة من الحقائق خاصة بالظروف الانسانية انما تقدم « حلا » « لاسرار » المعرفة .

والواقع ان المنهج الخاص بالبحث في أسس واصول المعرفة (المنهج الابستمولوجي) انما هو منهج شكلي بحت وعقيم . كما ان انكار البنائية للمادية التاريخية يصل بها الى ان التاريخ لغز غير قابل للتفسير ، ويضعها في طريق الانثرويولوجيا المثالية المسدود ، ويدمغها بتعسفية اجراءات منهج البحث في اسس المعرفة .

للدراسة بقية

تعليق بقلم المترجم :

مع تزايد التطورات التكنولوجية الحديثة ، او ما يطلق عليه « الثورة العلمية والتكنولوجية » ، تظهر اشكال جديدة للصراع الدائم بين الانظمة والقوى الاجتماعية المختلفة ، وتنعكس هذه الاشكال في اتجاهات فكرية يدعو بعضها الى القول بان العلوم الانسانية غير قادرة على مواجهة تحديات العصر . وانطلاقا من ذلك تزعم انه ينبغي احداثما يشبه الثورةفي اساليب ومفهومات ومناهج العلوم الاجتماعية لكي تواكب ما حدث من تطورات تكنولوجية . وبدلا من تاصيل الانجازات العلمية الحقيقية في مجال العلوم الاجتماعية ونظرياتها ومناهجها العلمية ثم الانطلاق من ذلك الى محاولة تفهم الآثار الاجتماعية لما يسمى « بالثورة العلمية والتكنولوجية » ، نقول انه بدلا من ذلك ، نجد ان اتجاهات فكرية معينة ـ وان كانت متقاربة الاهداف ـ تحاول ان تتغافل عن تلك الانجازات وعن التاريخ الحقيقي للعلم ، وتدعي ان تلك الانجازات قد عفى عليها الزمن ، ومن ثم ينبغي ايجاد مناهج جديدة لتطوير العلوم الاجتماعية . والهدف من ذلك هو ، بالطبع ، محاولة التأثير في اتجاهات هذه العلوم ومواقفها تجاه القضايا الرئيسية المتعلقة بالانسان والمجتمع وتطوره ، وما يدور فيه من صراعات ، وآفاق مستقبلة . وما ذلك ، في واقع الامر ، الا انعكاس للصراع الاجتماعي وامتداده الى مجال الحياة الفكرية والعلمية .

على ان اهم الحركات الفكرية التي برزت في الاعوام الاخيرة تمثلت فيما يسمى « بالفلسفة البنائية » . وقد انطلقت هذه الحركة من فرنسا اساسا . وهي تحاول ان تقدم منهجا لتحليل مجالات مختلفة مثل :

الرياضيات ، علم النفس ، البيولوجيا ، اللغويات ، علم الاجتماع ، الانثروبولوجيا ، والفلسفة .

وهذه الدراسة التي نقلناها الى اللغة العربية تناقش ما تقدمه البنائية من افكار ، وتحدد موقعها من اتجاهات فكرية اخرى معاصرة وعلاقة المنهج الذي تستخدمه بالمنهج الجدلي خاصة . ومن المفيد ان نؤكد الملاحظات التالية :

(١) تشير الدراسة الى ابرز ممثلي المدرسة البنائية . غير انه ينبغي ان نشير الى ان جان بياجيه ، صاحب الانجازات العلمية الهامة في مجال علم النفس الطفل ، له هو الآخر اسهامات نظرية في افكار البنائية ومنهجها .

(٢) ان الدراسة توضح ان البنائية لا يمكن اعتبارها موحدة الفكر . وفي هذا الصدد نقول ان اعمال بياجيه النظرية خاصة كتابه « البنائية » تؤكد ذلك هي الاخرى . ففي هذا الكتاب يناقش وينتقد بعض افكار ممثلي الفلسفة البنائية الآخرين مثل : ليفي شتراوس . وفي الفصل السابع من هذا الكتاب يعلق على الجدل الذي نشأ بين ليفي ـ شتراوس وسارتر قائلا : ان كلا منهما قد تغافل مثلا عن مفهوم « وحدة الاضداد » الذي يرى ـ من وجهة نظره ـ ان البنائية تؤكده مثلما يؤكده المنهج الجدلي تماما .

(٣) ان البنائيين والعديد من المثقفين يضعون اعمال التوسير ، الفيلسوف الشيوعي ، ضمن نطاق الفلسفة البنائية ، كما ان جان بياجيه يصف اعمال التوسير قائلا : انها نوع من تجديد للماركسية بتطعيمها بالمنهج الخاص بالبحثفياسس المعرفة (المنهجالايستمولوجي)، وان التوسير يفصل الماركسية عن الهيجلية ليعيد صياغة الماركسية وفق اصطلاحات البنائية المعاصرة .

لكن التوسير يعترض بنفسهعلى منيفسرون اعمالهعلى هذا النحو، ويحدد موقع اعماله من الايديولوجيات المختلفة ، فهو يقول في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه الشهير « قراءة لرأس المال » ان السبب في اعتبار ان تفسيراته تنتمي الى الفلسفة البنائية هو استخدامه لاصطلاحات البنائيين ، ثم يؤكد ضرورة ادراك ان المحتوي الداخلي لمقولاته ومضمونها ليس بينها وبين الايديولوجية البنائية اي شيء مشترك .

(٤) ان كاتب هذه الدراسة هو « لوسيان سيف » المشرف على سلسلة « المنشورات الاجتماعية » الفرنسية . وربما كانت شهرة « جارودي » ، واهتمامنا بأعماله في العالم العربي هي التي جعلتنا لا نلتفت جيدا الى بعض الاعمال الهامة التي يقدمها مفكرون آخرون، وربما كان من اهم الامثلة التي يمكن تقديمها في هذا الصدد « التوسير » المفكر الفرنسي الذي جذبت اعماله اهتمام الدوائر العلمية في السنوات الاخيرة .

القاهرة

احمد القصير

من منشورات دار الآداب

شخصيات منا دب المقاومة

تاليف سامي خشبة

« ليست هذه محاولة في النقد الادبي التطبيقي ، وليست محاولة لدراسة شخصيات لابطال تاريخيين او مخلوقين على حساب الاعمال الادبية انها محاولة لاكتشاف ما يمكن ان يصنعه الادببعقلية الشعب الذي يكتب عنه الادب ويكتب له . ان عقلية مصر وروحها في مواجهة كل محاولات غزوها وطمس معالمها القومية والانسانية هي ما يهمني في هذه الدراسات .. ومع هذا فان للبطولة ايضا نصيبا من اهتمام هذه الدراسات ، ولكنها بطولة العقل ـ مهزوما او منتصرا ـ في مواجهة محاولات تجميده في اطار ثقافات الغزاة، او في توابيت ثقافته المحلية التي اجبرت على التوقف عن مواكبة الحياة المتطورة .. ومن هنا ، فان كل ادب ننتجه يهدف الى تاكيد قيم الحرية العقلية والاجتماعية والسياسية والى اعادة الكشفعن حقيقتنا القومية من زاويتها الانسانية هو ادب للمقاومة »

من مقدمة المؤلف

٢٥٠ ق.ل.

صدر حديثا